

❖ تجديد مناهج التفسير... ضرورة ملحة

د. محمد دراجي.

أستاذ محاضر ورئيس قسم اللغة والحضارة

كلية أصول الدين * جامعة الجزائر.

تمهيد :

لا تزال الشكوى عالية، والدعوة ملحة إلى ضرورة إصلاح مناهج التعامل مع القرآن الكريم، حفظاً وفهماً وعملاً، حتى يصطلح الإنسان المسلم المعاصر مع كتاب الله تعالى، وتزول مظاهر الهجران المتعددة للقرآن الكريم التي تطبع حياة المسلمين منذ أمد بعيد، فهذا هو حكيم الشرق، ومفجر الصحوة الإسلامية في العصور الحديثة، السيد جمال الدين الأفغاني، الذي جعل القرآن الكريم منطلق مشروعه الحضاري المتميز، يقول: "القرآن وحده سبب الهداية، والعمدة في الدعاية، أما ما تراكم عليه وتجمع حوالبه من آراء الرجال واستنباطاتهم ونظرياتهم فينبغي ألا نعول عليه كوشي وإنما نستأنس به كراي... ولا نحمله على أكفنا مع القرآن الكريم في الدعوة إليه وإرشاد الأمم إلى تعاليمه... وتفسيره وإضاعة الوقت في عرضه"⁽¹⁾.

ولكن كيف يكون القرآن سبب الهداية، والمناهج المتبعة في فهمه تحول دون المسلمين وانتفاعهم بهذه الهداية، لذا عاب السيد جمال الدين الأفغاني على المفسرين القدامى اعتناءهم بالمباحكات اللغوية والكلامية وابتعادهم عن النظر في القرآن من حيث هو صالح لقيادة الحياة، واحتواء الحقائق الكونية والاجتماعية والأخلاقية فقال رحمه الله: "القرآن وإنني لأسف إذ دفن المسلمون بين دفتيه الكنوز وطفقوا في فيافي الجهل يفتشون عن الفقر المدقع..."



تجديد مناهج التفسير

وكيف لا أقول وأسفاه على القرآن، وإذا قام أحد لتفسير القرآن فلا أراء يهيم إلا بباء البسملة وبغوص، ولا يخرج من مخرج حرف صاد الصراط حتى يهوى هو ومن يقرأ ذلك التفسير في هوة عدم الانتفاع بما اشتمل عليه القرآن من المنافع الدنيوية والأخروية-مع استكمال الأمر على أتم وجوههما- فعمّ الجهل و تفسى الجمود في كثير من المتردين برداء العلماء حتى تخرصوا على القرآن بأنه يخالف الحقائق العلمية والقرآن بريء بما يقولون⁽²⁾.

والقارئ المتفحص لهذا النص يدرك أن السيد جمال الدين الأفغاني يدعو إلى إصلاح مناهج التفسير التي تحجب على المسلم نور القرآن وهداياته، لأنها تفرقه في مباحث لفظية وكلامية، ومصطلحات غريبة يصعب عليه فكّ فعاليتها، وحلّ رموزها، فيقول رحمه الله: "انصرفنا عن الأخذ بروح القرآن والعمل بمعانيه ومضامينه، إلى الاشتغال بألفاظه وإعرابه والوقوف عند بابه دون التخطيطي إلى محرابه... وإنما نحن اليوم حملنا مع القرآن ألفاظاً لفظية، ومناقشات حول أحكامه فرضية، واستنتاجات ليست في مصلحة البشر ولا هي من وسائل هدايتهم إلى الإيمان به، وأضفنا إليه من الشرح والتفسير ما لا محصل له سوى الأغرار وإرضاء العامة"⁽³⁾.

ويخلص السيد جمال الدين الأفغاني إلى التأكيد على أنّ وظيفة المفسر لكلام الله ﷻ لا يقوم بدرس تطبيقي لقواعد الإعراب ونكات البلاغة على نصوص القرآن الكريم، وإنما وظيفته الحققة أن يقتلع ما رسخ في عقول المسلمين من أفكار خاطئة، ومفاهيم غريبة عن الحقائق الدينية، وأن يحمي تلك التعاليم في نفوس المؤمنين، أو بعبارة أخرى، يجب أن يبنى الشخصية الإسلامية المتكاملة، والمجتمع الإسلامي الفاضل المتوازن، فيقول رحمه الله: "إنّ حركتنا الدينية هي كناية عن



د. محمد دراجي

الاهتمام بقلع ما رسخ في عقول العوام، ومعظم الخواص، من فهم بعض العقائد الدينية والشرعية على غير وجهها، ثم حملهم بنصوص القضاء والقدر على معنى يوجب عليهم ألا يتحركوا إلى طلب مجد أو تخلص من ذلّ، ومثل فهمهم لبعض الأحاديث الشريفة الدالة على فساد آخر الزمان أو قرب انتهائه فهما يشبط همهم عن السعي وراء الإصلاح والنجاح في نظير ذلك، ممّا لا عهد للسلف الصالح به.

فلا بدّ إذن من بعث القرآن وبعث تعاليمه الصحيحة بين الجمهور وشرحها على وجهها الثابت من حيث تأخذ بهم إلى ما فيه سعادتهم دنيا وآخري⁽⁴⁾.

وبالإضافة إلى السيّد جمال الدين الأفغاني، نجد العلامة المفكر المجدد الدكتور محمد إقبال-رحمه الله- (1937م) الذي أولى عناية كبيرة، واهتماماً فائقاً، لـ"تجديد الفكر الديني" وإعادة تشكيل العقل المسلم، وبناء الفكر الإسلامي، فأدرك أن المناهج المنحرفة في التفسير، إذا اتبعها الإنسان المسلم في فهم كلام الله ﷺ، أوردته المهالك، وانحرفت به عن المقاصد الصحيحة، فقال قولته المشهورة عنه: "بالتفسير نحول القرآن إلى بازند المجوس"⁽⁵⁾.

ولذا أدرك ضرورة التأليف في أصول التفسير، ومناهج فهم الوحي الإلهي، وعقد العزم على أن يفعل هو بنفسه ذلك، وأن يسدّ هذه الثغرة، ولكن المنية عاجلته، وحالت دون أن يحقق مراده هذا، لقد كتب إقبال-رحمه الله- إلى أحد أصدقائه الأثريين من العلماء قبيل وفاته ما يلي: "إنني على وشك الرحيل، ولكنني أتمنى أن أملئ بعض الآراء والأفكار عن القرآن الكريم، و أريد أن أكرّس ما بقي لي من عمري وقوتي وحيويتي في سبيل خدمة هذا الكتاب العظيم حتى تتاح لي زيارة



الرسول وقلبي راض مطمئن مسرور بأنني قد بذلت ما استطعت من جهدي في خدمة الدين القيم الذي جاء به⁽⁶⁾.

ويندرج فكر العلامة المصلح، الشيخ الرئيس عبد الحميد بن باديس-رحمه الله- (1940م)، في هذا الإطار، فهو أدرك بعد الأمة الإسلامية عن الفهم الصحيح للقرآن الكريم، بل عن الإيمان بجدوى الفهم، ففي محاضرة له بعنوان "بماذا تنهض الأمة نهضة دينية؟ ألقاها بنادي الترقى بالعاصمة الجزائرية بتاريخ 08 جويلية 1928م، صور المأساة في أحلك وجه لها لما قال: "...وإنما أنا رجل طالب قرآن" حفظته في أول بلوغي وأنا لا أفهمه، لأنني ما سمعت يوماً من أحد أن القرآن يقرأ للفهم، ولا أكتمكم أنني أخذت شهادتي من جامع الزيتونة في العشرين من عمري وأنا لا أعرف للقرآن أنه كتاب حياة وكتاب نهضة وكتاب مدنية وعمران، وكتاب هداية للسعادتين لأنني ما سمعت ذلك من شيوخهم الرحمة ولهم الكرامة، وإنما بدأت أسمع هذا يوم جلست إلى العلامة الأستاذ محمد النخلي الذي رمي هو الآخر- في وقت من فنة- بالإلحاد، ولكنّه يوم مات تداعت لموته خلق جامع الزيتونة واهتزّ له القطر التونسي كله⁽⁷⁾.

فالهاجس الذي يجب أن يسيطر على نفس المفسر لكلام الله، وعقله هو النظر إلى القرآن الكريم من حيث هو كتاب حياة وكتاب نهضة، وكتاب مدنية وعمران، وكتاب هداية للسعادتين، لأن هذا هو الغرض الأساسي الذي أنزل القرآن الكريم من أجله، فهل طرائق التدريس، ومناهج الفهم تتلاءم وهذا الغرض في المدارس والكليات الإسلامية، باعتبار أنّ هناك علاقة تكاملية بين الغرض من التفسير والمنهج المتبع فيه، يلاحظ شيخ المصلحين الأستاذ الرئيس عبد الحميد بن باديس



أن المناهج المتبعة في تدريس التفسير في المدارس والكليات الإسلامية بعيدة كل البعد عن الغرض الأصلي للتفسير، ويعتبر هذا مظهراً من مظاهر الهجر لكلام الله تعالى، الذي تعوّد منه رسول الله ﷺ: "وقال الرسول يا رب إنّ قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً"⁽⁸⁾. فيقول في معرض تفسيره لهذه الآية الكريمة: "ودعانا القرآن الكريم إلى تدبره وتفهمه والتفكير في آياته، ولا يتم ذلك إلا بتفسيره وتبينه، فأعرضنا عن ذلك، وهجرنا تفسيره وتبينه، فترى الطالب يغني حصة كبيرة من عمره في الحلول الآلية، دون أن يكون طالع ختمة واحدة في أصغر تفسير كتفسير الجلالين مثلاً، بل ويصير مدرساً ومتصدراً ولم يفعل ذلك، وفي جامع الزيتونة - عمره الله تعالى - إذا حضر الطالب بعد تحصيل التطويح في درس تفسير فإنه -وبل للمصيبة- يقع في خصومات لفظية بين الشيخ عبد الحكيم وأصحابه في القواعد التي كان يحسب أنه فرغ منها من قبل فيقضي في خصومة من الخصومات أياماً أو شهوراً فتنتهي السنة وهو لا يزال حيث ابتدأ أو ما تجاوزه إلا قليلاً دون أن يحصل على شيء من حقيقة التفسير، وإنما قضى السنة في المباحكات بدعوى أنها تطبيقات للقواعد على الآيات كأن التفسير إنما يقرأ لأجل تطبيق تلك القواعد الآلية ولا لأجل فهم الشرائع والأحكام الإلهية فهذا هجر آخر للقرآن مع أن أصحابه يحسبون أنفسهم أنهم في خدمة القرآن"⁽⁹⁾.

فكل منهج في التفسير لا يجعل من إبراز الهداية القرآنية هدفاً أساسياً له فهو في المنظور الباديسي نوع من أنواع هجر القرآن حتى ولو كان فاعل ذلك يحسب نفسه في خدمة القرآن، فدرس التفسير ليس من أجل تطبيق القواعد الآلية من نحو



وصرف وبلاغة... وإنما هو من أجل فهم الشرائع والأحكام وإدراك مقاصد التشريع وأسرار التكليف وتقديم إجابات حول المشكلات التي تواجه الإنسان.

وجاء بعد ذلك العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور -رحمه الله- (1973م) صاحب الموسوعة التفسيرية الموسومة بـ"التحرير والتنوير" في ثلاثين جزءاً في خمسة عشرة مجلداً، والذي عاش حياته كلها في التعلم والتعليم، وخبر "المشكلة التربوية التعليمية" جيداً، وما اعترأها من خلل وضعف، وكيف السبيل إلى تجاوز هذا الخلل الطارئ، والضعف المشين، فألف كتابه "أليس الصبح بقريب"، حيث يقول في مقدمته مبيناً الأسباب الدافعة له إلى هذا التأليف "قد كان حدًا بي حادى الآمال، وأملى عليّ ضميري من عام واحد وعشرين وثلاثمائة وألف، للتفكير في طرق إصلاح تعليمنا العربي الإسلامي الذي أشعرتني مدة مزاولته متعلماً ومعلماً بوافر حاجته إلى الإصلاح الواسع النطاق فعقدت عزمي على تحرير كتاب في الدعوة إلى ذلك وبيان أسبابه..."⁽¹⁰⁾.

وكان علم التفسير في مقدمة العلوم الشرعية التي بحثها الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، وتتبع أسباب انحطاطها وردّها إلى أربعة أسباب⁽¹¹⁾ وهي:

1-السبب الأول: الولع بالتوقيف والنقل، تفادياً عن الوقوع في الخطأ، الأمر الذي أدّى بهم إلى اتقاء الرأي ولو كان صحيحاً، وإيثار النقل ولو كان ضعيفاً لتوهمهم أنّ ما خالف النقل عن السابقين إخراج للقرآن عما أراد الله تعالى منه، ومما يندرج في هذا الإطار توسعهم الكثير في إيراد سبب النزول، وحشرهم لمرويات بساقطة على أنها من أسباب النزول.



د. محمد دراجي

2-السبب الثاني: الضعف في اللغة والبلاغة، فجاءت أقوال بعض المنشغلين بال تفسير غاية في الغثاثة والرتاثاة، وأخطر منه ضلال الباطنية والإسماعيلية وبعض منحرفي الصوفية الذين زعموا أنّ للقرآن ظاهراً وباطناً، وفسروا القرآن بإشارات لا تشهد لها مداليل اللغة.

3-السبب الثالث: الضعف في علوم يظنّ أنها بعيدة عن القرآن، وهي ضرورية لفهمه، ومعرفة عظمته العمرانية مثل التاريخ وفلسفة العمران والأديان السماوية.

4-السبب الرابع: خروج بعض التفاسير عن ذكر العلوم التي لها تعلق بفهم الآية إلى مسائل من علوم متنوعة ضعيفة المناسبة بموضوع الآية، كما فعل الفخر الرازي ... فكان كتابه بعيداً عن غرض التفسير.

هذه هي الأسباب التي أدت إلى التضييق لعلم التفسير، وحالت -في فضل العلامة محمد الطاهر بن عاشور- دون الفهم السليم للوحي القرآني، المثمر للسلوك الحميد، والفعل الحسن.

ونفس الشكوى نجدها عند المفكر الداعية المجدد للفكر الإسلامي، الشيخ محمد الغزالي (1996م) -رحمه الله- إذ أعلن ضيقه وتبرمه من الطريقة التي كان يدرس بها علم التفسير في الأزهر الشريف والمعاهد الدينية التابعة له، لأنها كانت بعيدة كل البعد عن تقريب الهداية القرآنية من عقول وقلوب الطلاب، واستبدلت ذلك كله بالحديث المسهب عن الوجوه الإعرابية، والإشارات البلاغية، والروايات المنقولة... فيقول: "أما علم التفسير فإنني أرى أننا لم ندرسه في الأزهر على الإطلاق، إذ أنّ دراسته كانت مجرد تطبيقات بلاغية وإعرابية فقط"⁽¹²⁾، ويقول في موضع آخر وهو في معرض السرد للعلوم التي تلقاها في الأزهر الشريف، والكتب



تجديد مناهج التفسير

التي كانت مقررة وكيف أن نفوره كان منها شديداً، وضيقه منها كان كبيراً، فيقول: "وأما الفقه والتفسير وغيرهما، فقد كان نفوري شديداً من كتب "نور الإيضاح، و متن القدوري، ومجمع الأنهر على ملتقى الأبحر، التي كانت تقدم لنا الفقه الحنفي، كما كنت ضائقاً بتفسير النسفي وأبي السعود وغيرهما..."⁽¹³⁾.

وكل هذه الشكاوى من أهل الفن، الذين مارسوا التفسير دراسة وتدریساً، تلتقي عند نقطة مشتركة، وهي أنّ المناهج المتبعة في تدريس التفسير تتوقف عن ظواهر ألفاظ الآيات القرآنية، والتراكيب المنتظمة لها، وتحجم عن سبر آغوار معانيها، واستملاء عنصر الهداية فيها، ولقد أدرك هذا العلامة المصلح المجدد أبو إسحاق الشاطبي (799هـ)، فسمى هذه الجهود التي تجعل كل همها تفكيك العبارة والوقوف عند حدودها بـ "مدرسة التفقه في العبارة" - فقال رحمه الله، داعياً إلى ضرورة ترك كل ما من شأنه أن يحول بين الإنسان وبين المقصود الأعظم للخطاب القرآني وهو التفهم لمعناه والتعبد بمقتضاه "وذلك أن القرآن عذار وانذار، وتبشير وتحذير، وردّ إلى الصراط المستقيم، فكم بين من فهم معناه ورأى أنه مقصود العبارة، فداخله من فوق الوعيد ورجاء الموعود، ما صار به مشمراً على ساعد الجد والاجتهاد، باذلاً غاية الطاقة في الموافقات هارباً بالكلية عن المخالفات، مبين من أخذ في تحسين الإبراد والاشتغال بما أخذ العبارة ومدارجها ولم تختلف مع مرادفات مع أنّ المعنى واحد، وتفريع التجنيس ومحاسن الألفاظ، والمعنى المقصود في الخطاب ليس هو التفقه في العبارة، بل التفقه في المعبر عنه ومالا مراد به وهذا لا يرتاب فيه عاقل"⁽¹⁴⁾.



د. محمد دراجي

وهذا الذي سمّاه الإمام الشاطبي بـ"مدرسة التفقه في العبارة" قد سمّاه باحث معاصر تتبع مراحل تطور علم التفسير، وهو إسلامية المعرفة، يتتبع تطور العلاقة بين المسلمين وبين قرآنهم، بمدرسة "التثقيف الإسلامي" التي تهدف إلى تقديم أكبر قدر من المعلومات، وشحن عقل المسلم به، دون التعرّيج لا من قريب ولا من بعيد عن واقع المسلمين ومدى قرّبه أو بعده عن المنهاج القرآني، وتعاليمه وأحكامه، ولقد انطلق هذا الباحث في الحكم على جهود "المفسرين التثقيفين" من نقطة أساسية وهي تحديد الغاية الأساسية للقرآن والتي حصرها في "إقامة الشخصية الإسلامية وبناء أمة لها خصائصها ومميزاتها، وإنشاء جيل على قواعد التربية الربانية تجعله صورة ناطقة عن الحق الذي نزل به القرآن"⁽¹⁵⁾.

ورأى بأنّ جيل الصحابة كان نموذجاً فريداً في تحقيق مبادئ القرآن الكريم في سلوكهم عملياً، ولذا لم يكونوا يبحثوا إلا ما تحته عمل، ولم يكثروا من البحوث الافتراضية والنظرية، ولكن مع تطور حركة التفسير -بعد عصر التابعين خاصة- أصبح المفسرون يتوسعون في بحث الموضوعات القرآنية، وهذا فهم تقديم أكبر قدر من المعلومات للمسلم وهكذا بدأوا يغفلون الغرض الأساسي للتفسير، مع ملاحظة أن الباحث -الدكتور عدنان زرزور- لم يعتبر هذا انحرافاً في المناهج التفسيرية، ويعلّل هذا بالقول "علينا أن نتذكر البيئة التي كان يعيش فيها هؤلاء المفسرون الأعلام، والجوّ الذي ينتسمونه وينطلقون فيه، لأن الجزء الذي أغفلوه من ذلك الغرض الأساسي كان متحققاً من حولهم في مجتمع إسلامي، وشريعة حاكمة وسلطان.



تجديد مناهج التفسير

ولهذا كان همّ المفسرين القدامى مصروفاً إلى "تنقيف" المسلم، وتقديم القدر الذي تمكن فيه المفسر، من العلوم والمعارف اللغوية والتاريخية ونحوها إلى قارئ التفسير وبخاصة الأحكام الشرعية⁽¹⁶⁾.

ولاحظ الباحث الدكتور عدنان زرزور أنّ الهوة ازدادت إتساعاً، بين التفسير والغرض الأساسي للقرآن بظهور الفرق الكلامية المختلفة، التي أصبحت لا تفهم القرآن إلاّ من خلال مقرراتها الفكرية التي وضعتها هي نفسها، وازداد الأمر سوءاً من خلال تسرب الإسرائيليات والموضوعات إلى مجال التفسير القرآني فحجبت أنوار القرآن وإيحاءاته على المسلم، وهكذا دخل علم التفسير مرحلة الركود والانحطاط الحضاري.

وفي العصر الحديث جدّت أحداث، ومتطلبات، وظهرت مفاهيم وأفكار، ما كان للمفسرين القدامى بها علم، فغابت الحياة الإسلامية، ولم يعد للمجتمع الإسلامي وجود، وكيان ومؤسسات تحتكم إلى الإسلام وشريعته في كل أنظمتها وقوانينها، فجدت الحاجة إلى تفسير معاصر للقرآن يكتبه صاحبه بلغة العصر وأسلوبه، ويواجه فيه الحياة المعاصرة بكل مشاكلها وأبعادها.

ولذا فقد حدد الدكتور عدنان زرزور، ثلاثة شروط لا بد من توفرها في التفسير الذي يليي الحاجة اليوم وهي:

1- ملاحظة الغرض الأساسي الذي نزل القرآن من أجله، بما يتناسب -مع هذا العصر- مع غياب المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية.



د. محمد دراجي

2- تسجيله لمعاني القرآن التي فهمها الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- واستلهموها وعاشوا تطبيقها العملي الواقعي الذي لم يعرف تفريقاً بين النظرية والتطبيق.

3- محاولته تجاوز عصر الخلاف -عصر المذهبية الفكرية- في تفسير القرآن الكريم.

ويؤكد الدكتور عدنان زرزور أنّ التفسير الضلال قد حقق هذه الشروط الثلاثة، ولذا اعتبره نقلة نوعية في تطور علم التفسير وعليه فتفسير سيّد قطب (1966م) "في ظلال القرآن" هو التفسير الذي استجاب لمتطلبات العصر، فقال: "وعندنا أنّ -في ظلال القرآن- امتاز بهذه الأمور الثلاثة، فلم يكن بذلك من أهم المعالم الرئيسية في تاريخ التفسير فحسب، بل كان كذلك تفسير العصر الذي لا يغنى عنه أي تفسير آخر من تفاسير علمائنا الأوائل، جزاهم عن كتابه أحسن الجزاء"⁽¹⁷⁾.

وذلك أنّ سيّد قطب -رحمه الله- كتب تفسيره بلغة العصر، وبطريقة ميزته عن بقية كتب التفسير، إذ ركّز صاحبه على الغرض الأساسي الذي أنزل من أجله القرآن الكريم، فقال: "إنّ الضلال ليس دليلاً ثقافياً لعلوم القرآن أو علوم التفسير، أو علوم الثقافة الإسلامية، من فقه، وأصول، وتاريخ جدل أو خلاف، ومن ظنّ أنّ هذا هو تعريف التفسير، أو أنّ تقديم ذلك الدليل الثقافي يجب أن يكون مهمة جميع المفسرين، في جميع العصور، فليعد على معلوماته بالمراجعة والتحليل، وليعد إلى الغرض الأساسي أو الأول من نزول القرآن بالنظر والتأمل..."⁽¹⁸⁾.

والدكتور الباحث، يريد أن يؤكد أنّ تفسير سيّد قطب فريد في بابه تميز بمنهجية فريدة، وطريقة جديدة لم يألّفها الناس من قبل في كتب التفسير، ولعل هذا هو



تجديد مناهج التفسير

السبب الرئيسي في أنّ الكثيرين - مع اختلاف البواعث في إصدار هذا الحكم الخطير - لم يعتبروه تفسيراً للقرآن الكريم، وإنما هو خواطر كان يكتبها سيد حول الآيات، وقالوا بأنّ ذلك هو سرّ تسميته بـ "ظلال القرآن".

والحقيقة أن الأستاذ سيّد قطب - رحمه الله - لم يكتف بطرق الموضوعات القرآنية، التي اعتاد المفسرون القدامى التعرض لها، وإنما حاول أن يربط بين المسلمين وقرآنهم من جديد "إني لأشفق على الظلال أن يكون كتاباً في التفسير، وذلك أن الغاية التي يهدف إليها أكبر بكثير من مجرد المعرفة النظرية الباردة لمعاني الآيات القرآنية، والتي يتسع الجدل فيها حول مسائل اللغة والكلام والفلسفة والفقه والتاريخ، وهذه أمور عليمّة محض، حيث إنّ علم التفسير يستطيع أن يبين لنا وجه الحق فيما يعتقدّه المؤمنون، ولكنّ هذا الحق لن تكون له علاقة بالواقع إلاّ في المجال الفكري، وهي علاقة نظرية خالصة بين الحياة والعلم.

أما الغاية التي يهدف إليها الظلال فهي: أن يعيد القرآن حياً في نفوس الناس، يصوغهم صياغة جديدة وينقلهم من مجتمع الجاهلية إلى مجتمع الإسلام، فيسمهم بميسمهم الحق، ويطبعهم بطابع الهدى، ويصيغهم بصيغة الله..."⁽¹⁹⁾.

ولما كان علم التفسير يحتل الصدارة في الفكر الإسلامي، كان لا بد وأن تتلون التفاسير التي يصدرها أبناء الحركة الإسلامية بهذا اللون من التفكير المتجدد، وأن تمتلئ تفاسيرهم ببحث هذه المسائل والموضوعات، وغيرها التي تثير الطريق أمام العمل الإسلامي المعاصر، ومن هؤلاء نجد العلامة المجدد أبا الأعلى المودودي (1979م) يرسم الطريق الأسلم لفهم القرآن فهماً صحيحاً بالقول بأنه: "التفكير في كلمات وصيغ الآية التي يراد معرفة معناها من حيث اللغة أولاً، ثم وضعها في



سياقها ثم مراجعة ما ورد في مختلف مواضع القرآن من الآيات المتعلقة بنفس مضمون تلك الآية، والأخذ بما ينسجم من تفسير هذه الآية مع هذه الآيات، مع ملاحظة الوقوف على أقوال وأفعال الرسول ﷺ، وبأي وجه فسرها أولئك الذين كانوا من اتباعه في أقرب عصر لحياته⁽²⁰⁾.

وهذا النص مهم جدا لأنه يوجب على المفسر أن يلتزم بالتفسير المأثور عن رسول الله ﷺ وأن يسترشد بالمأثور عن الصحابة والتابعين وكذلك آراء القدامى من المفسرين مما يدفع عن الاتجاه الهدائي الحركي في التفسير وفي الفكر عموماً تفهمه اختلاق مفاهيم لم يكن للسلف عهد بها والترويج لها تحت مظلة الإسلام السياسي.

وللعلامة المودودي كذلك دراسة موجزة ولكنها قيمة للغاية، تحت عنوان: "مبادئ أساسية لفهم القرآن الكريم" ضمنها أهم الخطوات المنهجية التي تؤدي إلى فهم سليم وصحيح للقرآن الكريم، وهذه الخطوات تعكس المنهج الحركي في التفسير وأهم هذه الخطوات ما يلي⁽²¹⁾:

- 1- يجب على من يريد أن يفهم القرآن أن يتخلى ذهنه ما أمكن من التصورات والنظريات السابقة، وينكب على دراسته بقلب مفتوح وأذن واعية وتصدد نزيه لفهمه، أما الذين يدرسونه واضعين طائفة من التصورات في أذهانهم مقدماً فإنهم لا يقرأون بين دفتيه إلا تصورات هم أنفسهم، ومن ثم لا يجدون شيئاً من رائحة القرآن.
- 2- إن من يريد أن يغوص في أعماق القرآن، ويحاول أن يدرك أسراره عليه أن يدمن قراءته، دون ملل أو كلل وأن يدرسه في كل مرة من وجهة جديدة، على أن تكون هذه الدراسة مصحوبة بتسجيل كل خاطرة وتقييد كل فكرة.



تجديد مناهج التفسير

3- إن الإلمام بالتصورات العامة لمفاهيم القرآن، ومعالم نظام الحياة التي يوضحها على أساس هذه التصورات أمر لا مناص منه لدارس القرآن، حتى يجد الإجابة الشافية لكل مشكلة تواجه الأمة، على أن الإلمام بتلك التصورات لا يأتي إلا عن طريق معايشة القرآن ذاته بجد وصبر وتدبر.

4- إن أقوم طريق للكشف عن معاني الآيات القرآنية في صورة وافية شاملة، هو تفسيره كوحداث متكاملة وذلك عن طريق التبع الدقيق لما ورد في القرآن عن كل موضوع من الموضوعات مع البحث عن وجوه الربط بين الآيات التي تحدثت عنه.

5- يستحسن مطالعة ما كتب قديماً وحديثاً في كل مسألة من مسائل الحياة التي نريد أن نتبين وجهة نظر القرآن فيها، لأن هذه المطالعة التي يجب أن تكون بكل إمعان تحدد أبعاد المسألة، ومبلغ تفكير الإنسان فيها...ومعرفة الجوانب التي تتطلب حلولاً، وماذا عجز عنه التفكير الإنساني حتى اليوم...وإذا حقق الباحث ذلك ودرس القرآن واضعاً أمام عينيه الجوانب التي تتطلب حلولاً فإنه يفاجأ بالحل في آيات قد قرأها عشر مرات من قبل ولم يخطر بباله أنها تتضمن الحل لما يبحث فيه.

6- وهاته الخطوات مهما التزم بها الباحث، وكان دقيقاً في تطبيقها فإنه لن تحقق الغاية ما لم يكن الباحث عاملاً بما جاء في القرآن الكريم، لأن القرآن كتاب دعوة وحركة، كتاب عقيدة وشريعة، كتاب إيمان وعمل، إنه ليس نظريات مجردة، وأفكاراً محضة، يمكن أن تدرس بعيداً عن التجربة العملية، فمناطق فهمه وتذوقه والنفاذ إلى أسراره وحقائقه هو التجاوب الواقعي مع مفاهيمه وتعاليمه، ومكابدة



د. محمد دراجي

الصراع بين الحق والباطل والإيمان والكفر، كما كابد الذين آمنوا من قبل، حتى
مكنوا لدين الله في الأرض.

ونحن في هذا البحث نقترح أهم الخطوات التي نراها ضرورية للفهم السليم
للقرآن الكريم.

1- تغليب الغرض الهدائي في العمل التفسيري، وذلك أنّ القرآن الكريم هو
كتاب هداية وتوجيه أولاً، فيجب أن يكون الغرض الأساسي الذي يستهدفه المفسر
هو تجلية الهداية القرآنية في شتى مجالات الحياة، وعرض واقع المسلمين على
القرآن الكريم، لنرى مدى القرب أو البعد من تعاليم القرآن الكريم وتوجيهاته، ولقد
كان الإمام محمد عبده (1905م) في العصر الحديث، من أوائل من دعا إلى
التّظر "إلى علم التفسير على أنه فهم الكتاب العزيز من حيث هو دين يرشد الناس
إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة، فإن هذا هو المقصد الأعلى
منه وما وراء هذا من المباحث فهو تابع له أو وسيلة لتحصيله"⁽²²⁾.

ولذا كان رحمه الله يتوسع فيما أغفله أو قصر فيه المفسرون السابقون ويختصر
ما بروزا فيه من مباحث الألفاظ والإعراب ونكات البلاغة، وفي الآيات التي لا تدل
عليها ولا تتوقف على فهمها الآيات وكان يتوكأ في ذلك على عبارة تفسير الجلالين
بالنقد ثم يتكلم في الآية أو الآيات المنزلة في معنى واحد بما فتح الله عليه فيه من
هداية وعبرة⁽²³⁾.

وبعد الشيخ محمد عبده، جاء تلميذه العلامة محمد رشيد رضا (1935م)
صاحب تفسير المنار، الذي حاول أن يعبر عن حاجة العصر إلى منهج جديد في
التفسير، يلم شتات التفسير، ويعالج المستحدثات ويصد هجمات الغزو الثقافي



تجديد مناهج التفسير

والفكري، فضمنه كل ما تحتاجه الأمة من أجل تجديد حياتها، فقال -رحمه الله- معبراً عن تدمره من الذين لم يراعوا فيه هذه الجوانب: "إنّ تفسير المنار قد أُلّف لاستدراك هذا النقص في كتب التفسير، ولكنه لا يدرس في المدارس، ولا يعتمد عليه في التربية، ولا يخطر في بال من لم يقرأه أنه يجد فيه كل ما تحتاجه إليه الأمة لتجديد حياتها ومجدها، ولا لدفع الغوائل عنها، ويوشك أن يكون أكثر من اطلعوا عليه لا ينوون بقراءته ما أُلّف لأجله من الإصلاح والهدي وتجديد ثوراته الأولى"⁽²⁴⁾.
والدعوة إلى تغليب الغرض الهدائي في العمل التفسيري، هو الذي يتماشى مع رسالة القرآن الأساسية، وغرضه الأول، "إنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم"⁽²⁵⁾، وهو الغرض الذي ركّز عليه النبي ﷺ، والجيل القرآني الفريد من نوعه من الصحابة الكرام، في التفسير، يقول أبو عبد الرحمن السلمي: "حدثنا الذين كانوا يقرئوننا كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوها، حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً"⁽²⁶⁾.

وتغليب الغرض الهدائي في التفسير هو الذي يجنبنا عيوب مدرسة "التفقه في العبارة" أو مدرسة "التثقيف الإسلامي" فاهيك عن عيوب المدارس المذهبية في التفسير وما أكثرها.

2- التنازل الموضوعي للسورة القرآنية: وثاني الخطوات المقترحة للوصول إلى فهم سليم لأي الذكر الحكيم، هو التنازل الموضوعي للسورة القرآنية الكريمة، إذ لكل سورة من سور القرآن "شخصيتها المتميزة" ولها محور واحد تدور حوله كل أجزاء السورة، وموضوعاتها مهما تعددت وكثرت، وللعلماء القدامى جهود معبرة



د. محمد دراجي

لإبراز هذا الوجه من الدراسات القرآنية، فأبو حامد الغزالي (505هـ)، وفخر الدين الرازي (606هـ)، وابن تيمية (729هـ)، وابن القيم (751هـ)، وأبو إسحاق الشاطبي (797هـ)، وإبراهيم بن عمر البقاعي (885هـ)، وجلال الدين السيوطي (911هـ)، ورشيد رضا (1935م) والدكتور محمد عبد الله درّاز (1958م)، الشهيد سيّد قطب (1966م). كلّهم أسهموا بقسط وافر، وجهد معتبر، لبيان الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، وائتلاف عناصرها، وأخذ بعضها بحجز بعض، حتى تشكل عقداً متناسقاً تناسقاً كاملاً.

لكن تبقى جهود الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله- (1996م) في هذا المجال رائدة إلى حدّ كبير، فهو إن استفاد ولاشك من جهود من سبقه من المفسرين خصوصاً الإمام الشاطبي، والدكتور محمد عبد الله درّاز، خصوصاً كتابه "النبأ العظيم" فإنه قد تقدم بهذه الدراسات خطوات عملاقة إلى الأمام، وجعل -رحمه الله- من خطبه في الدعوة والإرشاد، مجالاً لتفسير سور القرآن الكريم وتناولها تناولاً موضوعياً، فهو يقول على سبيل المثال عن سورة محمد ﷺ: "لنرى بدءاً أن المحور العام الذي تدور عليه السورة هو وصف أهل الحق وأهل الباطل وما يدور بينهما من نزاع حارّ وبارد"⁽²⁷⁾.

ويقول عن سورة التوبة: "تنقسم -سورة براءة- إلى قسمين: قسم ويمثل الثلث الأول من السورة يطهر الجزيرة من الشرك ومظاهره ومن تقاليد الجاهلية القديمة، أما القسم الثاني ويمثل الثلثين الباقيين فيطهر الجزيرة من النفاق"⁽²⁸⁾.
ثم أفرد لهذا اللون من التفسير، مشروعته القيم، الذي ظهر في ثلاثة أجزاء، بعنوان "نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم" الذي اعتبره دراسة جديدة



تجديد مناهج التفسير

للقرآن الكريم، لا بد من ارتبائها رغم الصعوبات والمخاطر، فقال: "قد ارتاد طريقاً لم أسبق إليه افتح به باباً من أبواب الخير، والقرآن لا تنقضي عجائبه، ولن يبلغ مهماً بذلنا مداه.

والهدف الذي سعيت إليه أن أقدم تفسيراً موضوعياً لكل سورة من الكتاب العزيز، والتفسير الموضوعي غير التفسير الموضوعي الأخير يتناول الآية أو الطائفة من الآيات فيشرح الألفاظ والتراكيب والأحكام.

أما الأول فهو يتناول السورة كلها ويحاول رسم "صورة شمسية" لها تتناول أولها وآخرها، وتتعرف على الروابط الخفية التي تشدها كلها، وتجعل أولها تمهيداً لآخرها، وآخرها تصديقاً لأولها.

لقد عنيت عناية فائقة بوحدة الموضوع في السورة، وأن كثرت قضاياها... يجب أن أغوص في أعماق الآية لأدرك رباطها بما قبلها وما بعدها، وأن أتعرف على السورة كلها متساوقة متماسكة..."⁽²⁹⁾.

وهذا الذي يدعو إليه الشيخ الغزالي رحمه الله، وهو تحكيم السياق العام للسورة في فهم آياتها وجزئياتها أمر مهم للغاية، ذلك أنه يقضي على النظرة الجزئية التي سيطرت على عقول المفسرين وهم يتعاملون مع آيات السورة الواحدة، فيفككون بين أجزائها وكأن السورة القرآنية ركام بين الآيات لا رابط بينها⁽³⁰⁾.

3- الاحتكام إلى قواعد اللغة العربية في تحديد معاني الألفاظ والتراكيب: ومن أهم الخطوات التي تساعد كثيراً على الفهم السليم لنصوص القرآن الكريم، هو الاحتكام إلى قواعد اللغة العربية ومداليلها لتحديد معاني الألفاظ والتراكيب القرآنية، وذلك لأن القرآن الكريم نزل بلغة العرب، وعلى عاداتهم في التخاطب،



د. محمد دراجي

فمن أراد فهمه فهماً سليماً بعيداً عن كل شطط وانحراف، فليس له علوم اللغة وليتصلع من أدواتها ما استطاع، يقول الإمام الشافعي: "وإنما بدأت بما وضعت من أن القرآن الكريم نزل بلسان العرب دون غيره، لأنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب وكثرة وجوهه، جماع معانيه وتفرقتها، ومن علمه انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جهل لسانها"⁽³¹⁾.

ويقول الإمام الشاطبي: "القرآن نزل بلسان العرب في الحملة، فطلب فهمه إنما يكون من هذا الطريق خاصة..."⁽³²⁾.

ويقول كذلك: "فإن قلنا إن القرآن نزل بلسان العرب، وأنه لا عجمة فيه، فيعني أنه نزل على معهود لسان العرب في ألفاظها الخاصة وأساليب معانيها، وأنها فيما فطرت عليه من لسانها تخاطب العام يراد به ظاهره، وبالعام يراد به العام في وجه والخاص في وجه، وبالعام يراد به الخاص، وظاهر يراد به غير الظاهر، وكل ذلك يعرف من أول الكلام أو وسطه أو آخره، وتتكلم بالشيء يعرف بالمعنى بالإشارة، وتسمى الشيء الواحد بأسماء كثيرة، والأشياء الكثيرة باسم واحد، وكلّ هذا معروف عندها لا ترتاب منه هي ولا من تعمق بعلم كلامها، فإن كان كذلك فالقرآن في معانيه وأساليبه على هذا الترتيب"⁽³³⁾.

فلكل لغة من اللغات خصائص وسنن، واللغة العربية واحدة من هذه اللغات التي لها خصائص تتبعها العلماء وأوضحوها أيّما إيضاح⁽³⁴⁾. والتي يجب فهم النصوص المكتوبة بها على ضوءها، وعليه فلا بد للمفسر لكلام الله تعالى الالتزام بهذه القواعد والمداليل، والخصائص والسنن، وأنه بقدر الإحاطة بها ومراعاتها في فهم



النصوص يكون قريباً من الصواب بعيداً عن الشطط والزلل، والاعتساف في تأويل النصوص تأويلاً مذموماً.

وعلى سبيل المثال يقول تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾⁽³⁵⁾ فقد قال بعض المفسرين إن المقصود: المودة الذي قرياه، وقد انتصر لهذا الرأي الإمام الزمخشري في تفسيره الكشاف⁽³⁶⁾. وقد حمله هذا الخطأ اعتماداً لبعض الروايات الضعيفة، وهذا خطأ لغوي - لا شك في ذلك - إذ لو أراد المودة لذوي قرياه، لقال: المودة لذوي القربى، فإن من طلب المودة لغيره، لا يقول أسألك المودة في فلان، ولا في قربي فلان، ولكن أسألك المودة لفلان والمحبة لفلان، فلما قال المودة في القربى، علم أنه ليس المراد لذوي القربى⁽³⁷⁾.

ولأهمية فهم مدلول اللفظ على الحالة التي كان يستعمل فيها زمن التنزيل فإن الشيخ أمين الخولي - رحمه الله - يرى بأنه على الرغم من تهيي النص القرآني لفهم معان متجددة، لكن مع ذلك لا ينبغي أن ننسب إلى القرآن من هذه المعاني إلا ما كان طريق فهمه الحس اللغوي للعربية وسبيل الانتقال إليه هو دلالة اللفظ الأولي في عصر نزول القرآن الكريم⁽³⁸⁾.

حتى إذا فرغ المفسر من معنى اللفظة اللغوية ودلالاتها الأولى في عصر النزول إلى معانها أو معانيها الاستعمالية في القرآن مهتدياً بما انتهى إليه من معانها أو معانيها اللغوية وقت النزول فيفسرها حينذاك مطمئناً في موضعها من الآية التي جاءت فيها⁽³⁹⁾.

وبالإضافة إلى الإحاطة بمعاني الألفاظ ودلالاتها، فلا بد من التضلع من الإعراب لأنه هو الذي يحدد المعاني ويفرق بينها، يقول أن فارس: "من العلوم



د. محمد دراجي

الجليلة التي خصت بها العرب الإعراب الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام، ولولاه ما ميز فاعل من مفعول، ولا مضاف من منعوت، ولا تعجب من استفهام، ولا صدر من مصدر، ولا نعت من تأكيد...⁽⁴⁰⁾.

ويقول مكّي بن أبي طالب القيسي في مقدمة كتابه "مشكل إعراب القرآن": "رأيت أعظم ما يجب على طالب علوم القرآن، الراغب في تجويد ألفاظه وفهم معانيه، ومعرفة قراءاته ولغاته، وأفضل ما القارئ إليه محتاج "معرفة إعرابه". والوقف على تعرف حركاته وسواكنه، يكون بذلك سالماً من اللحن فيه، مستعيناً على أحكام اللفظ به، مطلعاً على المعاني التي تختلف باختلاف الحركات، متفهماً مما أراد الله تبارك وتعالى من عبادته...إلى أن يقول: "... بمعرفة الإعراب تعرف أكثر المعاني وينجلي الإشكال، وتظهر الفوائد، ويفهم الخطاب، وتصح معرفة حقيقة الخطاب"⁽⁴¹⁾.

ورغم أهمية اللغة، وضرورتها في فهم نصوص الكتاب الكريم، فإنه لا بد من الحيطة والحذر من تفسير القرآن بمجرد الاحتمال النحوي الذي تحتمله تركيب الكلام، وهذا أمر تفتن له -قديماً- علماؤنا المحققون، فهذا شيخ المفسرين، محمد بن جرير الطبري (310هـ) قد لاحظ أن أبا عبيدة معمر بن المثنى، في كتابه "مجاز القرآن" ندر أن يستشهد بحديث رسول الله ﷺ، أو أن ينقل أثراً عن صحابي أو تابعي، ولذا نعتته بأنه ضعيف المعرفة بأهل التأويل قليل الرواية لأقوال السلف من أهل التفسير⁽⁴²⁾.



تجديد مناهج التفسير

ويقول العلامة ابن القيم: "وينبغي أن يتفطن هنا لأمر لا بد منه، وهو أنه لا يجوز أن يحمل كلام الله ﷻ، ويفسر بمجرد الاحتمال النحوي، الإعرابي الذي يحتمله تركيب الكلام، ويكون الكلام به له معنى ما، فإن هذا مقام غلط فيه أكثر المفسرين للقرآن: للقرآن عرف خاص، ومعان معهودة لا يناسبه تفسيره بغيرها، ولا يجوز تفسيره بغير عرفه والمعهود من معانيه، فإن نسبة معانيه إلى المعاني كنسبة ألفاظه إلى الألفاظ بل أعظم، كما أن ألفاظه ملوك الألفاظ وأجلها وأوضحها، ولها من الفصاحة أعلى مراتبها التي تعجز عنها قدرة العالمين، فكذلك معانيه أجل المعاني وأعظمها وأضخمها، فلا يجوز تفسيره بغيرها من المعاني التي لا تليق به"⁽⁴³⁾.

وعليه فإن علماءنا القدامى من النحويين المفسرين قد تكلموا عن إعراب الصناعة، وإعراب المعنى، وقالوا بأن المعول عليه هو تفسير المعنى، وهو الذي يجب التمسك به⁽⁴⁴⁾.

والخلاصة أن النحو من أهم ما يجب من أهم العلوم التي يجب أن يحيط بها المفسر لكلام الله تعالى، لكن يجب عليه ألا يسترسل في تحكيم الصناعة النحوية، وتفسير كلام الله ﷻ بمجرد الاحتمال النحوي الذي يحتمله تركيب الكلام، وإنما يكون مقصوده هو البحث عن المعاني واعتبارها سيق له الكلام له أصلاً.

وبعد علم النحو تأتي علوم البلاغة، وهي من أعظم أركان التفسير، لأنه لا بد من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز، وإنما يدرك بهذه العلوم، ولذا فإن العلماء قد أجمعوا على ضرورة التضلع في علوم البلاغة لمن أراد علم التفسير، يقول العلامة السكاكي في كتابه المفتاح: "لا أعلم في باب التفسير بعد علم التفسير بعد علم الأصول اقرأ على المرء لمراد الله ﷻ من كلامه من علمي المعاني والبديع، ولا أعون على تعاطي



د. محمد دراجي

تأويل متشابهاته، ولا انفع في درك لطائف نكته وأسراره، ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه، ولكم آية من القرآن قد ضيقت حقها، واستبلت ماءها ورونقها أن وقعت إلى من ليسوا من أهل هذا العلم، فأخذوا بها مأخذ مردودة، وحملوها على محامل غير مقصودة⁽⁴⁵⁾.

هذا وتبدوا مكانة اللغة العربية، وقواعدها ومداليلها تبدو أهميتها أكبر عندما نريد أن نحكم على المنهج الباطني المنحرف في التفسير، الذي خاضت غماره فرق كثيرة عندما وضعت مبادئها الفكرية، ومقرراتها الفلسفية أولاً، ثم أولت القرآن تأويلاً بعيداً عن مفاهيم الشريعة، ومدلولات اللغة فيها فوَقعت في انحرافات كثيرة، بل وانتهى بها الأمر إلى الخروج النهائي عن الإسلام، وذلك لأن الأصل عند علمائنا المحققين هو الأخذ بظواهر النصوص إلا إذا تعذر ذلك لدليل قائم، فعند ذلك يصار إلى التأويل، يقول الإمام التّسفي في عقائده: "والنصوص على ظواهرها فالعدول عنها إلى معان يدعيها أهل الباطن إلحاد" وقال السعد التفتازاني معلقاً على هذه العبارة العلمية الدقيقة: "وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص محمولة على ظواهرها، ومع هذا ففيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف لأرباب السلوك ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان"⁽⁴⁶⁾.

فالوقوف عند ظواهر النصوص، وعدم الخروج عنها، فيه العصمة عن الضياع في تعدد المعاني المحتملة، وهذا الضابط العلمي يقطع على المتلاعبين بآيات القرآن، يقول الدكتور محسن عبد الحميد: "ومن المعلوم عند أهل النظر والعقل من العلماء المحققين أن محاولات استخراج تفسيرات باطنية لأي قانون أو شريعة، دون



تجديد مناهج التفسير

الرجوع إلى مداليل اللغة، وطبيعة استعمال التراكيب ومتطلبات النحو والبلاغة، وقواعد الأصول ومقاييس العقل، وما ينطبق على الواقع، تعني المسخ ذلك القانون أو تلك الشريعة⁽⁴⁷⁾.

وبالإضافة إلى الباطنية الذين جعلوا للشريعة الإسلامية ونصوصها ظاهراً وباطناً، هناك الفرق الكلامية التي ما انحرفت إلا بمقدار ما تجاوزت مداليل اللغة وأنظمة قواعدها، حتى أن ابن قتيبة في كتابه "الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة"، قد سلك في الرد على الجهمية في التأويل والتعطيل منهجاً اعتمد فيه على دلالات اللغة وأوضاع العربية، فقال: "فقدت القول فيه بذكر ما تأولته الجهمية في الكتاب والأحاديث... ولم أعد في أكثر الرد عليهم طريق اللغة، فأما الكلام فليس من شأننا، ولا أرى أكثر من هلك إلا به، وحمله الدين على ما يوجبه القياس"⁽⁴⁸⁾.

وسأورد هذا المثال، فقد جاء في تفسير العلامة ابن كثير القصة الآتية: "قال الأصمعي: كنت عند أبي عمرو بن العلاء فجاء عمرو بن عبيد، فقال: يا أبا عمر هل يخلف الله الميعاد؟ فقال: لا، فذكر آية وعيد، فقال له: أمن العجم أنت؟ إن العرب تعد الرجوع عن الوعد لؤماً وعن الأيعاد كرمًا. أما سمعت قول الشاعر:
ليرهب ابن العم والجار سطوتي ولا انثني عن سطوة المتهدد
فإن إن اوعدته أو وعدته لمخلف ايعادي ومنجز موعدي"⁽⁴⁹⁾.

والخلاصة أن اللغة العربية، وقواعدها، ومداليلها هي السبيل القويم للفهم الصحيح للقرآن الكريم، وأن من أهم أسباب الانحراف في الفهم، ونشوء المناهج



د. محمد دراجي

المنحرفة في التفسير، هو البعد عن قواعد العربية وأنظمتها في الخطاب، وهو الطريق الذي سلكته الباطنية، وسائر الفرق المنحرفة قديماً وحديثاً.

4- الاحتكام إلى الصحيح من المأثور: ومن أهم القواعد الموصلة إلى الفهم السليم لنصوص القرآن الكريم، والمبعدة عن كل مواطن الشطط والزلل في التعامل مع نصوص القرآن الكريم، الاحتكام إلى الصحيح من المأثور وعدم العدول عنه بحال، والمقصود بالمأثور هو تتبع ما جاء في القرآن نفسه من البيان والإيضاح والتفصيل لبعض آياته، وما نقل عن النبي ﷺ وما نقل عن الصحابة والتابعين من كل ما هو بيان وتوضيح لمراد الله تعالى من نصوص كتابه الكريم⁽⁵⁰⁾، فلا بد للمفسر من البحث عن معنى الآية في القرآن نفسه أولاً، لأن القرآن فيه المجمل والمفصل، والخاص والعام، والمطلق والمقيد، ولذا أجمعت العلماء على ضرورة مراعاة هذه القاعدة، وهي تفسير القرآن بالقرآن، يقول ابن تيمية: "فإن قال قائل، فما أحسن الطرق في التفسير، فالجواب أن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر"⁽⁵¹⁾.

ويمكن القول بأن إغفال هذه القاعدة الجليلة من قواعد التفسير هو الذي أوقع كثير من الفرق الإسلامية في القراءة الجزئية لنصوص القرآن الكريم، وبالتالي انتهت إلى نتائج خطيرة في التصور الإسلامي العام، وقد تفتن إلى هذا الإمام الشاطبي-رحمه الله- فقال: "...ويمكن أن يكون من خفي هذا الباب مذهب الخوارج في زعمهم: ألا تحكيم، استدلالاً بقوله: ﴿إِن الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾⁽⁵²⁾. فإنه مبني



تجديد مناهج التفسير

على أن اللفظ ورد بصيغة العموم فلا يلحقه تخصيص، فلذلك أعرضوا عن قوله تعالى: ﴿فابعثوا به حكماً من أهله، وحكماً من أهلها﴾⁽⁵³⁾.

وقوله تعالى: ﴿يحكم به ذوا عدل منكم﴾⁽⁵⁴⁾، وإلا فلو علموا تحقيقاً قاعدة العرب في أن "من العموم ما يراد به الخصوص لم يسرعوا إلى الإنكار ولقالوا في أنفسهم هل هذا العام فخصوص"⁽⁵⁵⁾.

وقضية أخرى من الخطورة بمكان، وهي أن هناك جملة من الآيات اعتبرت بعض الطوائف والفرق الإسلامية من المتشابهة، ولكن الإمام الشاطبي أوضح بأن مصدر تشابهها عند القائلين بأنها من المتشابهة إنما مردّه إلى عدم ضمّها إلى باقي الآيات الدائرة معها في نفس الموضوع، وفهم بعض هذه الآيات على ضوء البعض الآخر، فقال: "والثاني وهو الإضافي ليس بداخل في صريح الآية وإن كان في المعنى داخلاً فيه، لأنه لم يصر متشابهاً من حيث وضع الشريعة من جهة أنه قد حصل بيانه في نفس الأمر ولكن الناظر قد قصر في الاجتهاد أو زاع عن طريق البيان اتباعاً للهوى، فلا يصح أن ينسب الاشتباه إلى الأدلة وإنما ينسب إلى الناظرين التقصير، والجهل بواقع الأدلة"⁽⁵⁶⁾. ولقد أورد بعض النماذج من صنيع المعتزلة وكذا الخوارج حيث لم يجمعوا بين أطراف الأدلة فوقعوا في الزيغ ثم قال: "وهكذا سائر من اتبع هذه الأطراف من غير نظر فيما وراءها ولو جمعوا، بين ذلك ووصلوا ما أمر الله به أو يوصل لوصلوا إلى المقصود، فإذا أخذ من غير بيان صار متشابهاً وليس بمتشابه في نفسه شرعاً بل الزائغون ادخلوا فيه المتشابه على أنفسهم فضلوا على الصراط المستقيم"⁽⁵⁷⁾.



د. محمد دراجي

وبعد البحث في القرآن نفسه عن معنى النص القرآني، ينتقل المفسر إلى السنة النبوية الشريفة، ذلك أنه عليه الصلاة والسلام قد كلف بمهمة البيان والتبليغ، وفسر الكثير من الآيات القرآنية للصحابة رضوان الله تعالى عليهم حين أشكل عليهم فهمها وسألوه عن معناها، يقول تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتذكرون﴾⁽⁵⁸⁾. ويقول: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾⁽⁵⁹⁾.

ولذا لم تختلف كلمة العلماء والمحققين من المفسرين المحدثين والفقهاء والأصوليين على أنّ السنة تبين المجمل وتخصص العام وتفيد المطلق... بل أجمعت كلمتهم على قبول هذا اللون من التفسير وتقديمه على غيره، فإذا صح فإنه يكتفي به ولا يجوز العدول عنه إلى غيره، يقول الإمام الشافعي: "جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة، وجميع السنة شرح للقرآن"⁽⁶⁰⁾.

ولقد بين - كذلك - شيخ المفسرين محمد بن جرير الطبري أهمية السنة في الوصول إلى علم تأويل القرآن وهو بصدد المبحث في مقدمة تفسيره عن الوجوه التي من قبلها يوصل إلى معرفة تأويل القرآن فقال: "فقد تبين بيان الله جلّ ذكره أنّ مما أنزل الله من القرآن على نبيه ﷺ، وذلك تأويل جميع ما فيه من وجوه أمره ونهيه وندبه وإرشاده وصنوف نهيه وطائف حدوده ومبالغ فرائضه ومقادير اللازم بعض خلقه لبعض وما أشبه ذلك من أحكام آية التي لم يدرك علمها إلا ببيان رسول الله ﷺ له بتأويله بنص منه أو بدلالة قد نصبها دالة أمته على تأويله"⁽⁶¹⁾.



ومن خلال هذا النص المهم نجد أنّ أبا جعفر الطبري قد جعل وجوه تأويل القرآن ثلاثة، وهو هنا ركّز على الوجه الثاني وهو ما خص الله بعلم تأويله نبيه ﷺ، وكما هو واضح من النص فإنّ هذا الوجه يتعلق أكثر ما يتعلق بالأحكام العملية، التي لا سبيل لأن تدركها الأمة إلاّ بواسطة ﷺ.

ويقول ابن تيمية مبيناً أهمية تفسير القرآن بالسنة: "فإن أعياه ذلك (تفسير القرآن بالقرآن) فعليه بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل لقد قال الإمام محمد بن ادريس الشافعي: كل ما حكم به رسول الله فهو مما فهمه من القرآن، قال تعالى: ﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً﴾⁽⁶²⁾، وقال تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾⁽⁶³⁾، وقال تعالى: ﴿وما أنزلنا عليك الكتاب إلاّ لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾⁽⁶⁴⁾، ولهذا قال رسول الله ﷺ: "ألا وإني وتيت الكتاب ومثله معه"⁽⁶⁵⁾، إلى أن قال ابن تيمية: "والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فمن السنة"⁽⁶⁶⁾، وقال كذلك في موضع آخر: "ومما ينبغي أن يعلم القرآن والحديث إذا عرف تفسيره من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى أقوال أهل اللغة فإنه قد عرف تفسيره"⁽⁶⁷⁾.

وإذا لم نجد الضالة، ولم نظفر باللغية في سنة رسول الله ﷺ، رجعنا إلى أقوال الصحابة رضوان الله عليهم، لأنهم هم الذين شاهدوا التنزيل، وعانوا أسباب النزول، يضاف إلى هذا سلامة فطرتهم، ونقاوة سيرتهم، ورسوخهم في الفصاحة والبيان، لأن القرآن الكريم نزل بلغتهم التي كانوا يتكلمون بها، ويعرفون معاني ألفاظها، وأسرار



د. محمد دراجي

تعبيرها، ودقة معانيها، وهذا كله يؤهلهم للفهم الصحيح لكلام الله ﷻ، ويعطي لبيانهم لكتاب الله مكانة عالية، يجب على من أراد الفهم الصحيح لكلام الله أن يطلع على بيانهم، يقول الإمام الشاطبي: "بيان رسول الله ﷺ بيان صحيح لا إشكال في حجته،... وأما بيان الصحابة فإن أجمعوا على ما بينوه فلا إشكال في صحته أيضاً، كما أجمعوا على الغسل من التقاء الختانيين المبين لقوله تعالى: ﴿وإن كنتم جنبا فاطهروا﴾⁽⁶⁸⁾، وإن لم يجمعوا عليه فهل يكون بيانهم حجة أم لا؟ هذا فيه نظر وتفصيل ولكنهم يترجح الاعتماد عليهم في البيان من وجهين:

- أحدهما: معرفتهم باللسان العربي، فإنهم عرب فصحاء لم تتغير ألسنتهم ولم تنزل عن رتبتها العليا فصاحتهم، فهم أعرف في فهم الكتاب والسنة من غيرهم، فإذا جاء عنهم قول أو عمل واقع موقع البيان صح اعتماده من هذه الجهة.

- الثاني: مباشرتهم للوقائع والنوازل وتنزيل الوحي بالكتاب والسنة، فهم أقعد في فهم القرائن الحالية، وأعرف بأسباب التنزيل، ويدركون ما لا يدركه غيرهم بسبب ذلك، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب فمتى جاء عنهم تقييد بعض المطلقات أو تخصيص بعض العمومات فالعمل عليه صواب. هذا إن لم ينقل عن أحدهم خلاف في المسألة، فإن خالف بعضهم فالمسألة اجتهادية"⁽⁶⁹⁾.

الهوامش

- 1- جمال الدين الأفغاني أحاديث وذكريات، عبد القادر المغربي، ص. 60
- 2- خاطرات جمال الدين الأفغاني، محمد المخزومي، ص. 99-100
- 3- جمال الدين الأفغاني، أحاديث وذكريات، المغربي، ص. 61
- 4- جمال الدين الأفغاني، أحاديث وذكريات، ص. 99



تجديد مناهج التفسير

- 5- انظر مجلة الرواسي، العدد5، شعبان، رمضان 1412هـ ، الموافق لـ جانفي، فيفري 1992م. حوار مع المفكر جودت سعيد.
- 6- محاضرات ملتقى الاجتهاد، قسنطينة 19، 26 1983م، محاضرة الاجتهاد وشاعر الإسلام العلامة محمد إقبال للدكتور ظهور أحمد ظهر.
- 7- آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج4/ص46، طبعة وزارة الشؤون الدينية، 1985م، ط..1
- 8- سورة الفرقان. الآية.30
- 9- جالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، ص 251، طبعة وزارة الشؤون الدينية، الجزائر. ط.1. 1982م.
- 10- أليس الصبح بقریب، محمد الطاهر بن عاشور. ص.5
- 11- المصدر نفسه. ص184 وما بعدها.
- 12- مجلة المسلم المعاصر، سيمينار تدريس العلوم الشرعية، محمد الغزالي، السنة 16. العدد 62، 1992م.
- 13- إسلامية المعرفة، قصة حياة محمد الغزالي، السنة الثانية، العدد السابع، 1417هـ- 1997م. وانظر أيضاً الفصل الخاص بالتفسير "على هامش التفسير" من كتابه القيم.
- 14- الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي، ج3. ص.307
- 15- علوم القرآن، د/عدنان زرزور، ص.421
- 16- علوم القرآن، د/عدنان زرزور، ص.425
- 17- علوم القرآن، د/عدنان زرزور، ص.426
- 18- نفسه، ص.427
- 19- حضارة الإسلام، السنة السابعة، العدد 8، 1967م.
- 20- الإسلام في مواجهة التحديات، أبو الأعلى المودودي، ص.175
- 21- مبادئ أساسية لفهم القرآن الكريم، أبو الأعلى المودودي، ص.49
- 22- تفسير المنار. ج1. ص.17
- 23- تفسير المنار. ج1. ص.15
- 24- الوحي المحمدي، رشيد رضا، ص.12
- 25- سورة الإسراء، الآية.9
- 26- مجموع فتاوي ابن تيمية، ج13. ص.331
- 27- خطب الشيخ محمد الغزالي، ج2، ص.148



- 28- خطب الشيخ الغزالي، ج2، ص.59
- 29- نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، محمد الغزالي، ص.5
- 30- انظر في هذا دراستنا: نحو منهج حضاري في فهم القرآن عند الشيخ الغزالي.
- 31- الرسالة، الإمام الشافعي، ص.50
- 32- الموافقات، الشاطبي، ج2، ص.50
- 33- الموافقات، الشاطبي، ج2، ص.50
- 34- انظر هذه الخصائص في مقدمة تفسير الطبري، ج1، ص6، ومجاز القرآن لأبي عبيدة، ص8، وتأويل القرآن، ص450، والصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها لابن فارس، وفقه اللغة وسرّ العربية لأبي منصور التعالي الخ.
- 35- سورة الشورى، الآية ص.23
- 36- الكشاف، ج4، ص.220
- 37- محاسن التأويل، جمال الدين القاسمي، ج14، ص.50
- 38- مناهج تجديد، أمين الخولي، ص.312
- 39- نفسه، ص.311
- 40- الصاحبي في فقه اللغة، ابن فارس، ص.77
- 41- مشكل إعراب القرآن، مكّي بن أبي طالب القيسي، ج1، ص.63
- 42- تفسير الطبري، ج1، ص.44
- 43- التفسير القيم، ابن القيم، ص.369
- 44- الإتقان، ج1، ص238، والخصائص لابن جنّي، ج1، ص384، وتفسير القرطبي، ج1، ص.34
- 45- التحرير والتنوير، ابن عاشور، ج1، ص.20
- 46- العقائد النسفية، ج1، ص.204
- 47- حقيقة البابية والبهائية، د/محسن عبد الحميد، ص.26
- 48- عقائد السلف، تحقيق د/علي سامي التشار ود/عمار طالبي، ص.225
- 49- تفسير ابن كثير، ج4، ص.653
- 50- التفسير والمفسرون، د/محمد حسين الذهبي، ج2، ص.152
- 51- مجموع فتاوي ابن تيمية، ج13، ص.363
- 52- سورة يوسف، الآية. 40



تجديد مناهج التفسير

- 53- سورة النساء، الآية. 35
54- سورة المائدة، الآية. 95
55- الاعتصام، الشاطبي، ج1، ص. 238
56- الموافقات، ج3، ص. 55
57- الموافقات، ج3، ص. 54
58- سورة النحل، الآية. 44
59- سورة النحل، الآية. 64
60- الرسالة، الإمام الشافعي، ص. 106
61- تفسير الطبري، ج1، ص. 26
62- سورة النساء، الآية. 64
63- سورة النحل، الآية. 44
64- سورة النحل، الآية. 64
65- رواه أبو داود في سننه، كتاب السلام، لزوم السنة، ج1، ص200، رقم الحديث 04، 1/6
66- مجموع فتاوي ابن تيمية، ج13، ص. 363
67- مجموع فتاوي ابن تيمية، ج13، ص. 27
68- سور المائدة، الآية. 6
69- الموافقات، ج3، ص. 219.

